رسالة الأديب

مجلة شهرية تبحث في الآداب والفكر والسياسة والاجتماع تصدرها جمعية الأدباء

السنة الأول ـ العدد الثالث

٢٥ مارس ١٩٥٨

صاحب الجلالة المعظم يخطب في وفود الصحراء بمحامد الغزلان

ـ ان الله قد وهب نفوسكم اجنحة لتطير بها سابحة في فضاء الحب والحرية والمعرفة ، فلماذا تقصونها بايديكم وتدبون كالحشرات على اديم الارض ؟

ـ من يبيعني فكرا جميلا بقنطار من الذهب ؟ من ياخذ قبضة من الجواهر بدقيقة من المحبة ؟ من يعطيني عينا ترى الجمال وياخذ خزائني ؟

جبران

العربية

لغة العلم والحضارة

بقلم عبد العزيز بنعبد الله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في هذه الحقبة الحاسمة التي يلعب فيها التعريب دورا مهما في حياتنا الوطنية يلذ لنا أن نستعرض الادوار التي مرت على العربية كأداة لنقل العلوم وتسجيل مختلف مظاهر الحضارة وتتجلى لنا من خلال هذا العرض ثروة هذه اللغة ومقوماتها وامكانياتها الواسعة

لست في حاجة الى بيان الدور الذي لعبته اللغةالعربية في العصر الجاهلي كأداة للتخاطب وكمصهر لصقل التعابير عن أدق الاحساسات وأرق العواطف اذ يكفي أن نراجع موسوعات اللغة لنلمس ذلك الثراء الذي عز نظيره في معظم لغات العالم ولعل من مظاهر هذا الثراء تدرج المعنى الواحد والفكرة الواحدة في مآت المفردات من القوة الى الضعف منخلال شتى الاعتبارات وكذلك تدرجالاسماء لنفس المسميات في مآت من التعابير تبعا لادق مجالي الميز ولا تزال هذه الموسوعات اللغوية لم تدرس حق الدرس الى الان وتنطوي على كنوز تكتشف المجامع اللغوية مع الايام مدى ارتباطها بالمعاني الجديدة واتساقها معمولدات الفكر الحديث ·

على أن في مصنفات الفنون والعلوم الرياضية والادبية والفلسفية والقانونية ذخيرة لغوية كانت هي القوام الاساسي للتفاهم بين العلماء والتعبير عن أعمقالنظريات الفنية يوم كانت الحضارة في عنفوان ازدهارها ويكفي أن تتصفح كتابا علميا أو فلسفيا لتدرك مدى هذه القوةوتلك السعة الخارقة · ففي العربية اذن «مقدرات» شاسعة لا يتوقف حسن استغلالها الا على مدى ضلاعتنا في فقه اللغة ·

والكل يعلم أنه منذ أواخر القرن الهجري الاول انبثقت حركة فكرية واسعة أذكت جامعات الشرق ولم تستفد من هذه الحركات كما يقول مؤلف «المعجزة العربية» لا السريانية ولا الفارسية ولا اليونانية وانما استفادت منها لغة شعب عاش لحد الان خارج حدود العالم المتمدن ولم يكن في الظاهر مايحدوه الى الاضطلاع بالدور الخطير الذي قام به مع ذلك في تاريخ الحضارة وهذا الشعب هو الشعب العربي ·

كانت العربية لغة أدب وشعر منذ أعرق عصور الجاهلية ولكن سرعة انتشارها ترجع ــ في نظر م· فنتجو مؤلف «المعجزة العربية» ــ الى الثمار المادية والروحية التيجنتها من الاسلام أكثر منها الىالقرار الذي اتخذه الامويونبجعل العربية اجبارية في الوثائق الرسمية ·

وخلال القرن الثاني الهجري بدأ انحلال مراكز الثقافة اليونانية في الشرق الادنى «وتمخض هذا الانحلال عن أكبر فوضى في اللغات والاديان» فقد بدأت شعوب عريقة في الحضارة كالمصريين والهنود تتحلل من تراثها الخاص

لتعتنق على أثر احتكاكها بالعرب «معتقداتهم واعرافهم وعوائدهم» ٠

ومنذ ذلك العهد ظهرت شعوب أخرى خلفت العرب فى النواحى التى احتلتها «ولكن نفوذ أتباع محمد ظل لازبا لم يتغير» كما يقول جورج ريفوار ففى جميع نواحى افريقيا وءاسيا التى دخلوها من المغرب الى الهند «تغلغل ذلك النفوذ فى الاعماق الى الابد ولم يستطع فاتحون جدد استئصال دين العرب ولغتهم» وقد أكد م٠ فنتجو أن العربية أمست فى فارس اللغة الرسمية واتخذها الشعراء أنفسهم أداة لصياغة القريض فى حين «ظلت اللهجة البهلوية» مستعملة فى الجبل وقد استمر نفوذ العربية فى القرون التالية بل صارت العنصر الجوهرى فى الادبرة والتى هى لغة الثقافة عند الهندوس والتى نصف مفرداتها تقريبا من أصل عربى واذا كان شعراء مثل الفردوسى صاحب الشاهنامه الذى هو عند الفرس بمثابة هوميروس عند الاغريق والذى كان متضلعا فى العربية «عادوا يقرضون الشعر منذ القرن العاشر الميلادى بالفارسية» فان معظم المصنفات العلمية ظلت تحرر بالعربية مثل موسوعة الرازى الطبية وغالب مؤلفات ابن سينا ٠

وقد أوضح كوستاف لوبون فى كتابه «حضارة العرب» (الطبعة الفرنسية ص ٤٧٣) أن العربية أصبحت اللغة العالمية فى جميع الاقطار التى دخلها العرب حيث خلفت تماما اللهجات التى كانت مستعملة فى تلك البلاد كالسريانية واليونانية والقبطية والبربرية ٠٠ ووقع نفس الحادث كذلك فى فارس مدة طويلة ورغم انبعاثات الفارسية بقيت العربية لغة جميع المثقفين «وقد أكد جوستاف أيضا (ص ١٧٤) بأن الفرس يدرسون اليوم (أى أواخر القرن التاسع عشر) العلوم والدينيات والتاريخ فى مصنفات عربية»

هذا وقد عربت أهم المصنفات اليونانية فى عهد الخلفاء العباسيين حيث انكب العرب على دراسة الاداب الاجنبية بحماس «فاق الحماس الذى أظهرته أوربا فى عهد الانبعاث» وقد خضعت اللغة العربية لمقتضيات الاصطلاح الجديد فانتشرت فى مجموع أنحاء اسيا واستأصلت نهائيا اللهجات القديمة (جورج ريفوار فى كتابه «وجود الاسلام») وقد قضت العربية حتى على اللاتينية لاسيما فى شبه الجزيرة الايبيرية (اسبانيا والأندلس) حيث ندد الكاتب المسيحى الفارو وهو من رجال القرن التاسع الميلادى بجهل مواطنيه باللاتينية فقال : «ان المسيحيين يتملون بقراءة القصائد وروائع الخيال العربية ويدرسون مصنفات علماء الكلام المسلمين لابقصد تفنيدها بل من أجل التمرن على الاسلوب الصحيح الانيق فى العربية ٠ وجميع الفتيان المسيحيين المبرزين لايعرفون سوى اللغة العربية والادب العربى فهم يقرأون الكتب العربية ويدرسونها بكامل الحرارة ويتهافتون على اقتناء المكاتب الضخمة مهما كلفهم ذلك من ثمن ويعلنون على الملأ حيمثا وجدوا أن الادب العربى شىء بديع ٠٠ ما أعظم الالم ! لقد نسى المسيحيون حتى لغتهم الدينية ولا تكاد تجد واحدا بين الالف يحسن تحرير رسالة باللاتينية الى صديق له ٠ أما باللغة العربية فانك تجد أفواجا من الناس يحذقون التعبير بهذه اللغة بكامل الاناقة بل انهم يقرضون من الشعر ما يفوق من الوجهة الفنية أشعار العرب أنفسهم «وقد نقل الاستاذ ليفى بروفنصال مقتطفات من كتاب الفارو هذا فى كتابه حول «حضارة العرب فى اسبانيا» وقد أكد المؤرخ دوزى فى كتابه «تاريخ مسلمى اسبانيا» (ج١ ص ٣١٧) أن أهل الذوق من الاسبان بهرتهم نصاعة الادب العربى واحتقروا البلاغة اللاتينية وصاروا يكتبون بلغة العرب الفاتحين»

وقد نقل دوزى عن صاحب كتاب «لوس موزار ابيس دوطوليد» أن العربية ظلت أداة الثقافة والفكر فى اسبانيا الى عام ١٥٧٠ ففى ناحية بلنسية استعملت بعض القرى الاسبانية العربية كلغة لها الى أوائل القرن التاسع عشر وقد جمع أحد أساتذة كلية مدريد ١١٥١ عقدا فى موضوع البيوع محررة بالعربية كانموذج للعقود التى كان الاسبان يستعملونها فى الاندلس» ٠

ولم يفت المؤرخ «فياردو» الذى كتب منذ نحو القرن «تاريخ العرب فى اسبانيا» أن ينوه بثراء اللغة العربية الخارق وشاعرية العرب الفياضة حتى ان معظم سكان شلب كانوا شعراء فى نظر القزوينى بل يؤكد دوزى أنهم كلهم كانو شعراء ٠

ان اللغة العربية التى بلغت مبلغا كبيرا من المرونة والثروة فى العهد الجاهلى أدركت فى القرن الرابع الهجرى أى فى عنفوان العصر العباسى أوج كمالها وقد وصف زكى مبارك روعة النثر الفنى العربى فى هذا القرن ووصف فيكتور بيرار اللغة العربية فى ذلك العصر بأنها «أغنى وأبسط وأقوى وأرق وأمتن واكثر اللهجات الانسانية مرونة وروعة فهى كنز يزخر بالمفاتن ويفيض بسحر الخيال وعجيب المجاز رقيق الحاشية مهذب الجوانب رائع التصوير» وأعجب ما فى الامر ــ وهو شىء لانظير له عند الشعوب الاخرى أن البدو كانوا هم سدنة هذه الذخائر «وجهابذة النثر العربى جبلة وطبعا» ومنهم استمد كل الشعراء ثراءهم اللغوى وعبقريتهم فى القريض ٠

ان نفوذ اللغة العربية أصبح بعيد المدى حتى ان جانبا من أوربا الجنوبية أيقن بأن العربية هى «الاداة الوحيدة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لنقل العلوم والآداب» كما يقول جورج ريفوار الذىأوضح أيضا «ان رجال الكنيسة اضطروا الى تعريب مجاميعهم القانونية لتسهيل قراءتها فى الكنائس الاسبانية وأن «جان سيفيل» وجد نفسه مضطرا الى أن يحرر بالعربية معارض الكتب المقدسة ليفهمها الناس ٠

أما فى فرنسا فقد أكد جوستاف لوبون فى حضارة العرب (ص ٤٧٤) أن العربية خلفت «اثارا مهمة فىفرنسا نفسها وقد لاحظ المؤرخ سديو عن حق أن لهجة ناحيتى أوفيرنى وليموزان زاخرة بالالفاظ العربية وأن الاعلام تتسم فى كل مكان بالطابع العربى»

وكان من الطبيعى أن يزود العرب الذين كانوا قادة المتوسط منذ القرن الثامنالميلادى ـ كلا من فرنساوايطاليا بمعظم مصطلحاتها البحرية على أن العربية تركت أثرها فى مصطلحات الجيش والادارة والصيد والعلوم وغيرها»

وقد لوحظ نفس التأثير فى صقلية حيث كان الملك روجير الرماندى يتسربل بالازياء الشرقية ويرقم جبته الرسمية بالحروف العربية وكان كل من طابعه ونقوده يحمل الكتابة العربية والنرماندية وقد كان جورج أميرال صقليه متضلعا فى العربية وبالجملة «فقد صارت العربية ـ كما يقول الاستاذ فنتجو ـ لغة دولية للتجارة والعلوم»

أما نسبة هذا التأثير فقد ذكر بعض الباحثين أن المفردات العربية التى دخلت الى الاسبانية تقدر بربع محتويات القاموس الاسبانى بينما دخلت الى البرتغالية ثلاثة «الاف كلمة عربية وقد صنف الاب سوسا باتيستا الذى ولد فى دمشق من أبوين عربيين قاموسا عام١٧٨٩ جمع فيه الكلمات التى اقتبسها البرتغال من العربية وهذا القاموس يقع فى مائة وستين صحيفة كما ألف دوزى وانجلمان قاموسا للكلمات الاسبانية والبرتغالية المشتقة من العربية وتوجد فى مكتبة الاسكوريال معاجم عربية يونانية وعربية لاتينية وعربية اسبانية صنفها علماء مسلمون (حضارة العرب ص ٤٦٦ ـ ٤٧٤) وقد كان للمغرب حظه فى هذا التأثير اللغوى على الاندلس الذى استمر حكمه لها نحوا من ثلاثة قرون أما البرتغاليون الذين عاشوا فى المغرب فقد ذكر شافرييير فى كتابه عن تاريخ المغرب (ص ٢٧٣) أن الجالية التى كانت بالمغرب فى القرن السادس عشر كانت تتراسل بعربية حشوها تعابير مغربية وتكتب مراسلاتها بالحروف العربية ٠

وهنالك لغات أخرى كالمالطية اقتبست معظم مفرداتها من العربية وقد أمكن الاستماع فى السنوات الاخيرة لخطاب فاهت به شخصية مالطية رسمية لم يعسر فهمه على المستمعين لاسيما وأن اللهجة المالطية تتجانس مع لهجات المغرب العربى ، ومعلوم أن الكثير من اللهجات تتقارب فى العالم العربى وقد أكد جوستاف لوبون (ص ٤٧٢) «أن العربية من أكثر اللغات انسجاما فهى وان كانت تحتوى على عدة لهجات كالشامية والحجازية والمصرية والجزائرية غير أن هذه اللهجات لاتختلف فيما بينها الا بفوارق جد طفيفة فبينما نلاحظ أن سكان قرية فى شمال فرنسا لايفهمون كلمة من اللهجة المستعملة فى قرى الجنوب نرى سكان شمالى المغرب الاقصى يتفاهمون بسهولة مع سكان مصر والحجاز» وقد قال الرحالة بوركارد بأن كل من عرف احدى هذه اللهجات فهمسائرها بدون عناء ٠

وقد اكتشفت فىصقلية لوحة مسيحية محررة بالعربية ومؤرخة بالتاريخ الهجرى بعد انتهاء الاحتلال العربى بستين سنة ٠

واللغة الاغريقية نفسها اقتبست الشىء الكثير من العربية غير أن المقتبسات اتخذت شكلية يعسر معها ارجاعها الى الاصل العربى ٠

ومعلوم أن الجمعات الاوربية كانت عاملا مهما فىذيوع اللغه العربيه التى أصبحت فى العصور الوسطى لغة المسيحه والطب ومختلف العلوم والفنون بل أصبحت لغة دولية للحضارة ٠

ففى عام ١٢٠٧م لوحظ وجود معهد فى جنوة لتعليم اللغة العربية ثم نظم المجمع المسيحى العالمى بعد ذلك تعليمها فى أوربا وذلك باحداث كراسى فى كبريات الجامعات الغربية وفى القرن السابع عشر اهتمت أوربا الشمالية والشرقية اهتماما خاصا بتدريس اللغة العربية ونشرها ٠ ففى سنة ١٦٣٦ قررت حكومة السويد تعليم العربية فى بلادها ومنذ ذلك انصرفت السويد الى طبع ونشر المصنفات الاسلامية وبدأتروسيا تعتنى بالدراسات الشرقية والعربية على الخصوص فى عهد البطرس الاكبر الذى أوفد الى الشرق خمسة من الطلبة الروسيين وفىعام ١٧٦٩ قررت الملكة كاترينا اجبارية اللغة العربية وفىعام ١٨١٦ أحدث قسم اللغات السامية فى جامعة بتروكراد

وقد اتجه اقتباس أوربا من العربية نحو الميدان العلمى فدخلت الى اللغات الاوربية كثير من المصطلحات العربية مثل الكحول والاكسير والجبر واللوغريتم وقد استمد الاسبان حسب ليفى بروفنصال ـ معظم أسماء الرياحين والازهار منالعربية ومن جبال البرانس انتقلت مصطلحات العلوم الطبيعية الى فرنسا مثل البرقوق والياسمين والقطن والزعفران ومجموع مصطلحات الرى تقريبا هى كذلك من أصل عربى كما تحمل الحلى فى اسبانيا أسماء عربية ويتجلى نفس التأثير فى الهندسة المعمارية وبالجملة فقد استمدت اسبانيا وبواسطتها أمريكا

البقية ص 15

لذلك أريد أن أشير هنا الى ميادين الحقائق الخلقية والجمالية والدينية وبعبارة أوجز الى الميدان الروحى فى عبارة بسيطة لنرى ماوصلت اليه الحرية من تغلغل فى قلوب الناس خصوصا فى العصر الحديث

فمنذ هذا العهد أصبحنا نعرف حقوقنا ، ونطالب أن لا يستبد أى طاغية سياسى او أية سلطة دينية بالضمير الانسانى ! فكل انسان مسؤول وحده عن اتجاهاته الفلسفية والدينية ، لذلك رأيت أن اوضح هذا الفرق الجلى بين الميدان الخاص والميدان العام ، فالانسانية والتاريخ لايمكن أن يتراجعا الى الوراء على أية حال ·

قيمة الشخصية الانسانية :

بعد أن رأينا المراحل الاساسية التى مرت بها معركة الحرية فى القرنين الاخيرين يجب أن نحلل بايجاز مدى قيمة الشخصية الانسانية فقد أصبح للكرامة الانسانية فى هذا العهد أثر قوى فى معركة الحرية ، وأصبح كل مواطن يغار عليها ، ويعمل على صيانتها ، حتى صارت مبدأ من مبادىء هذه المعركة الاجتماعية والسياسية الطويلة الذيل ، التى ابتدأت بنقد آراء فلاسفة القرن الثامن عشر والتى يبدو لى شخصيا انها استؤنفت اليوم من جديد تحت شعار جميع محاولات المذاهب الاجتماعية هذا علاوة على المجهود الجبار الذى بذلته فى سبيلها الثورة الفرنسية الكبرى ولم تنجح فيه آنئذ ·

ومما يشهد لتغلغل فكرة القيمة الانسانية فى نفوس الناس اننا لم نعد نصبر على ظلم المحاكم العدلية خوفا من سيفها المصلت ! أليس أن حكما جائرا بالاعدام ضد مواطن أسود فى الولايات المتحدة قد أثار ضجة واستنكارا شديدين فى أوساط الصحافة العالمية ؟

ان الشعور بالقيمة الشخصية هو الذى جعل من السهل لدينا أن نثور فى وجه الاستعباد ! كما أن هذا الشعور هو الذى جعلنا نعيش فى هذا العصر حقبةخطيرة من تاريخ تطور المرأة · ونلاحظ انقلابا سريعا وتغيرا محسوسا فى عوائدها وأخلاقها وحالتها العامة خصوصا فى المدن الكبرى حيث أصبحت تتمتع بكل مايتمتع به الرجل من حقوق !

ان الحياة لاتجرى حسب أهوائنا وارادتنا · ومع ذلك فبفضل الانقلابات التاريخية والتطورات الآلية التىغيرت وجه العالم يجدر بنا ألا ننكر ماأحرزه المجتمع الغربى من تقدم ونجاح !

للبحث صلة

العربية لغة العالم والحضارة — تتمة

اللاتينية من اللغة العربية الشىء الكثير من مقوماتها اللغويه ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا ·

وقد لاحظ عالم ايطالى كبير أن معظم التعابير العربية التى تغلغلت بكيفية مدهشه فى لغة روما لم تنتقل عن طريق التوسع الاستعمارى ولكن بفضل اشعاع الاسلام الثقافى ·

بل ان الاصطلاح الخاص بالكنيسة تأثر الى حد بعيد بالطابع العربى فقد اعترف البارون كارادوفو مؤلف «مفكرو الاسلام» وهو مسيحى متحمس «بأن الاسلام علم المسيحية منهاجا فى التفكير الفلسفى هو ثمرة عبقرية أبنائه الطبيعية وأن مفكرى الاسلام نظموا لغة الفلسفة الكلامية التى استعملتها المسيحية فاستطاعت بذلك اكمال عقيدتها جوهرا وتعبيرا وهذه ظاهرة طبيعية لاسيما اذا اعتبرنا ـ مع مؤلف «وجوه الاسلام» مدى مساهمة الفلسفة الاسلامية فى تكوين علم الكلام خلال القرون الوسطى والدور الذى قام به فى ذلك كل من ابن سينا وابن رشد وما كان لهما من تأثير على أشهر مفكرى المسيحية ·

واذا كان قد قدر للعرب أن يقوموا بدور ما فى عصر الجاهلية فانما كان ذلك عن طريق اللغة التى كانتأنصع عنصر فى حياة العرب وقد دعا فولفنسن فى كتابه «تاريخ اللغات السامية» (المشارقة المتكلمين بلغة الضاد الى درس فقه اللغة السامية للاقتناع بعظمة اجدادهم وبالدور الذى قاموا به فى حضارة العالم القديم)

«ثم أكد أن المستشرقين الذين نددوا بالعروبة وبالاشعاع العربى لم يهدفوا الا لغايات دينية واستعمارية»

وقد عبر الاستاذ ماسينيون عن نفس الفكرة قائلا : «ان المنهاج العلمى قد انطلق أول ماانطلق باللغة العربية ومن خلال العربية فى الحضارة الاوربية» · ثم قال : «ان العربية استطاعت بقيمتها الجدلية والنفسيةوالصوفية أن تضفى سربال الفتوة على التفكير الغربى كما أنعشت «ألف ليلة وليلة» فى القرن السابع عشر الميلادى ذهنية أوربا التى أتخمتها أساطير الاغريق والرومان» ·

ثم يواصل ماسينيون وصفه الرائع قائلا : «ان اللغة العربية أداة خالصة لنقل بدائع الفكر فى الميدان الدولى وان استمرار حياة اللغة العربية دوليا لهو العنصر الجوهرى للسلام بين الامم فى المستقبل» ·

عبد العزيز بن عبد الله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com